درس 91
إيذاء المؤمنين

تعرض قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذى

ولما رأت قريش أنهم لم يُفْلِحوا في إرْجاعِ أبي طالب عن نصرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وحمايته، وأن قد انضم إليه في ذلك غَيْرُه، وأن دعوةِ رسولِ الله في انتشار، وأن المؤمنين به في ازدياد، لجأوا إلى طريقةِ الأذى فأغْرَوْا سُفَهاءَهم أن يتظاهروا بالاستهزاءِ برسول الله وإيذائه؛ خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاةِ عند الكعبة؛ وقد أراد أبو جهل أن يَرُضَّ رأسه عليه الصلاة والسلام وهو ساجد (أي يدق رأسه ليكسره). ولكن اللهَ تعالى حَفِظَه منه، فإنه لما قَرُبَ منه خانته قُواه، وسقط من يده الحجر الذي أعده لذلك، ورجع إلى قومه مذعوراً مُنْتَقِعَ اللون (أي متغير اللون) وهو يقول: إنه قد تَعَرَّضَ لي فَحْلٌ ما رأيت مثله قط، هَمَّ بي ليأكلني.

وأغرى عُقْبَة بن أبي مُعَيْط أن يتربَّصَ سجودَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلقي عليه فَرْثَ جَزُور (ما في كرش الجزور - البعير - بعد ذبحها) ففعل، ولَمْ يَقْدِرْ أحدٌ من المسلمين الحاضرين على إزالته، حتى أتت ابنته فاطمةُ الزهراء رضى الله عنها فألقته عنه.

وكان ذلك الفاجر أبو جَهْل يَنْهَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته عند البيت، فقال له مرة حين رآه يصلي: ألم أنْهَكَ عن هذا، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رَداً شديداً وهدده، فقال: أتُهَدِّدُني وأنا أكثر أهل الوادي نادِياً، والنادي هو مجتمع الناس، يريد أبو جهل أن القوم يجتمعون بمجلسه بكثرة لعظم منزلته، فأنزل الله تعالى: **(كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ* نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ* فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ* سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ* كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)**.

وبينما النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصلي في حِجْرِ الكعبة، إذ جاء الفاجِرُ عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط، فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر الصديق ودفعه عنه وقال: (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم).

وجاء رجلٌ إلى مَجْمَع قريش يشكو مَطْلَ أبي جهل، أي تسويفه، في دَيْنٍ له عليه، فقالوا للرجل: يُنْصِفُكَ محمد، يقصدون بذلك الإيقاعَ بين رسول الله وأبي جهل، فتوجه ذلك الرجل إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن ينصفه من أبي جهل، فقام معه إلى دار أبي جهل حتى ضرب على بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد، فخرج

مُنْتَقِعاً لونه، فقال له صلى الله عليه وسلم: أعْطِ هذا حقه، فقال أبو جهل: لا تَبْرَحْ حتى تأخذه. فأعطاه إياه من ساعَتِه، فعَجِبَت قريش من ذلك، حيث انعكس عليهم قصدهم، ورَأوْا ما لم يكن في حُسْبانِهم من انهزام صاحبهم، فقال لهم: واللهِ لقد سَمِعْتُ حين ضرب على بابي صَوْتاً مُلِئْتُ منه رُعْباً ورأيت فوق رأسي فَحْلاً من الإبل ما رأيت مثلَه.

وكان أبو لَهَب وهو عمه عليه الصلاة والسلام أشد عليه من الأباعِد، وكان جاراً له، فكان يرمي هو وزوجته القَذَرَ على بابه.

وكان من المُؤْذين العاص بن وائل السَّهْمِيّ (من بني سهم) والد عمرو بن العاص، والأسود بن عبد يَغوث الزُّهْرِيّ ، من بني زُهْرة أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأسود بن المطلب الأسَدِيّ (من بني أسد) ابن عم السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، والوليد بن المُغيرة عم أبي جهل، والنَّضْر بن الحارث العَبْدَرِيّ (من بني عبد الدار)، ولم يُسْلِمْ من هؤلاء أحد، بل أهلكهم الله تعالى على الكفر، ما بين قتيلٍ في غزوة بدر ومُعَذَّبٍ بأشَدِّ الأمراض وأشنعِها، واللهُ عزيزٌ ذو انتقام.

وقد أسلم في ذلك الوقت حمزةُ بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمَّا عَيّرَته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فأدركته الحَمِيَّةُ وتوجه إلى ذك الفاجر وغاضبه وقال: كيف تسب محمداً وأنا على دينِه، فأنار اللهُ بصيرةَ حمزة، ودخل في دين الإسلام، وقد كان من أقوى المسلمين شَكيمةً على أعداء الدين حتى لُقّب (أسَدُ الله).

فيما عرضته قريش عليه صلى الله عليه وسلم ليرجع عن الدعوة

لما رأى كفار قريش أن طريق الأذى الذي لجأوا إليه لم يُجْدِهِم نَفْعاً فيما يريدون؛ اجتمعوا للشورى فيما يعملون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لإرجاعه عن أمره، فاتفقوا على أن يبعثوا إليه عُتْبَة بن ربيعة العَبْشَمِيّ (من بني عبد شمس)، وكان من عظمائهم، ليعرض عليه أمورا لعله يقبلها ويرجع عن هذه الدعوة، فذهب إلى رسول الله صلى الله وسلم وهو يصلى في المسجد وقال له: يا ابن أخي إنك من خيارنا حَسَباً ونَسَباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فَرَّقْتَ به جماعتَهم، وسَفَّهْتَ به أحلامَهم، وعِبْتَ آلهتهم ودينَهم ومن مَضَى من آبائهم، فإن كنت تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تريدُ شَرَفاً سَوَّدْناكَ علينا حتى لا نَقْطَعَ أمراً دونَك، وإن كنتَ تريدُ مُلْكاً مَلَّكْناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك

رَئِيًّا (أي مَسًّا) من الجِنِّ لا تستطيع رَدَّهُ عن نَفْسِك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه.

فلما فرغ من كلامه قرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم سورة فُصِّلَتْ، حتى وصل إلى قوله تعالى: **(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)**.فأمسك عتبة بِفِيه، واستحلفه أن يَكُفَّ عن ذلك، فلما رجع عتبة إلى قومه قال لهم: يا معشر قريش لقد سمعت قولا ما سمعت مِثْلَه، واللهِ ما هو بالشعر ولا بالكَهانة ولا بالسِّحْر، فأطيعوني وامتنعوا عن الرجل، فوالله لَيَكونَنَّ لكلامه الذي سمعت شأن، فإن تصبه العرب فقد كُفيتُموه بغَيْرِكم، وإن يظهرْ على العرب فعِزُّهُ عِزُّكُم، فقالوا: لقد سَحَرَكَ محمد.

ولما لم تنفعهم هذه الحيلة عَمَدُوا إلى حيلة أخرى، فعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته، فأنزل الله تعالى عليه سورة **(قل يا أيها الكافرون)**، فلما يئسوا من ذلك طلبوا منه أن ينزع من القرآن ما يَغيظُهُم من ذَمِّ الأوثان والوعيد الشديد، فأنزل الله تعالى عليه: (**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**).

ولما رأوا أن كل ذلك لم ينفعهم شيئاً لجأوا إلى طرق التعجيز فقالوا له: إن كنتَ صادقاً فأرِنا آيةً نطلبها منك، وهي أن ينشقَّ القمر فِرْقَتَيْن. فلما أراهم الله تعالى ذلك تعنتوا واستمروا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أسئلة تعنت وعناد مثل قولهم: **(لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسَفًا، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ)**. كِسَفاً: قِطَعاً. قبيلا: أي كفيلا بما تقول و شاهدا على صحته.

وكان يجيبهم عن ذلك بما يأمره الله تعالى به مثل قوله تعالى: (**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**).

ولما عجزوا عن مقاومته بهذه الوسائل عادوا إلى استعمال الشدة والأذى مع رسول الله والمؤمنين، ولم يتركوا لذلك باباً إلا وَلَجوه.

إيذاء قريش للمؤمنين

كما أوذِيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الجَهْر بالدعوة إلى الإسلام أوذِيَ أصْحابُه؛ فإن كل قبيلة كانت تسيئ إلى من أسلم منها وهم يتحملون تلك الإساءات بالصبر الجميل، فلم يَفْتَتِنُوا عن دينهم بل ثَبَتُوا على يقينهم حتى أتم الله تعالى أمره.

فمن الذين أوذوا في الله بِلالُ بن رَباح، كان مملوكاً لأمية بن خَلَف الجُمَحِيّ (من بني جُمَح)، فكان يجعل في عنقه حَبْلاً ويدفعه إلى الصِّبْيان يلعبون به، وكان أمية

يخرج به في شدة الحر ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، وقد اشتراه سيدُنا أبو بكر الصِّدِّيق رضيَ اللهُ عنه وأعتقه ابتغاء وجه ربه.

ومنهم عامر بن فُهَيْرَة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وكان مملوكاً لصَفْوان بن أمية وقد اشتراه الصديق رضي الله عنه وأعتقه.

ومنهم امرأة تسمى زِنِّيرَة عُذبت حتى عَمِيَت فلم يَزِدْها ذلك إلا إيماناً رضي الله عنها.

ومنهم عَمَّار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه؛ كانوا يُعَذَّبون بالنار، وقد مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وهم يُعَذَّبون، فقال: صَبْراً آلَ ياسر فمَوْعِدُكُم الجنة. وقد مات أبوعمار وأمه تحت العذاب رضي الله عنهما، وأما عمار فنطق بكلمة الكفر ظاهِراً فأُطْلِق، وفي ذلك نزل قوله تعالى: (**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**).

وبالجملة لم يَخْلُ أحدٌ من المسلمين الأوَّلين من أذِيَّةٍ لَحِقَتْهُ في اللهِ تعالى ولكن كل ذلك لم يصدهم عن دينهم بل زادهم إيماناً وقالوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل.

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابَه من الأذى؛ وهم غَيْرُ قادرين على مَنْعِه لقلة عددهم وعدم استعدادهم إذ ذاك؛ أشار عليهم أن يهاجروا إلى الحبشة حتى يجعل الله لهم فَرَجاً مما هم فيه، فهاجر إليها منهم عشرة رجال وخمس نسوة في مقدمتهم سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجه رُقَيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومكثوا هناك ثلاثة أشهر رجعوا بعدها إلى مكة ولم يتمكنوا من دخولها إلا في حماية من أجارهم من عظماء القوم.

وفي ذلك الوقت أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عمره حين إسلامه ستاً أو سبعاً وعشرين سنة، ولما أسلم قال المشركون: قد انتصف القومُ منا اليوم.

لما ضاقت الحِيَلُ بكفار قريش عرضوا على بني عبد مَناف دِيَةً مضاعفة ليسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقبل ذلك بنو عبد مَناف، فعرضت قريش على أبي طالب أن يعطوه فتى من فِتْيانِهم ويسلم إليهم ابن أخيه فردهم وقال لهم: عَجَباً لكم تعطوني ابنكم أغْذُوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه.

ثم لما انسدت في وجوه كفار قريش أبواب الحيل، ولم يفلحوا فيما استعملوه من طرق الأذى مع رسول الله والمؤمنين، اتفقوا على مقاطعة بني عبد مَناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم، فلا يعاملونهم ببيع ولا شراء حتى يسلموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جَوْفِ الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك فالتجأ بنو عبد مَناف: مسلمُهم وكافرُهم إلى أبي طالب ودخلوا معه في شِعْبِه، فحاصرهم فيه كفار قريش مدة تقرب من ثلاث سنين؛ حتى نَفَدَ ما عندهم من الزاد واضطروا لأكل أوراق الأشجار.

الهجرة إلى الحبشة

وبعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم الشِّعْب أشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها منهم ثلاثةٌ وثمانونَ رجلاً، ومعهم من نسائهم سبعُ عشرةَ امرأة ومن أخذوا من أولادهم، وكانوا جميعاً من بطون قريش، وقد مكثوا في هذه الهجرة إلى ما بعد خروج بني عبد مَناف ورسول الله صلى الله عليه وسلم من حصار الشِّعْب.

ولما وصلوا إلى الحبشة وكان مَلِكُها عادلاً أكرمهم وأمَّنَهم على عبادتهم ومَكَّنَهم من إعلانها، فلما علمت قريش بذلك أرسلت إلى نَجاشِيِّ الحبشة وفدا يحمل إليه وإلى بَطارِقته الهدايا ليرد هؤلاء المهاجرين ويمنعهم من الإقامة في أرضه، فلم يَرْضَ النجاشيُّ بذلك بل استحضر المهاجرين إليه وسألهم عما هم عليه من الدين، فكلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبان له ما كانت عليه حالتهم قبل الإسلام وما جاءهم به الإسلام من تَرْكِ عبادة الأوثان وإفراد الله تعالى بالعبادة، وما أرشدهم إليه من مكارم الأخلاق، وقرأ عليه جعفر أول سورة مريم المشتملة على قصة مولد المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، فقال النجاشيُّ: إن هذا مثل الذي جاء به المسيح، ثم سألهم عما يَتَقَوَّلُه عليهم وفد قريش في حق المسيح، فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا؛ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول، فقال النجاشيُّ: إن عيسى ابن مريم لا يزيد على ذلك، ثم قال للمهاجرين: اذهبوا فأنتم آمنون، ورد على وفد قريش هداياهم، فرجعوا إلى قومهم خائبين.

وقد رَغِبَ أبوبكر الصديق رضي الله عنه في الهجرة إلى الحبشة لشدة ما لقيه من أذى قومه، فلَقِيَه ابن الدُّغُنَّة فقال له: مثلُكَ يا أبا بكر لا يخرج وأنا لك جار، فعدل وطاف ابن الدُّغُنَّة في قريش وهو يقول: أبوبكر لا يخرج مثله، أتُخْرِجُون رجلاً يُكْسِبُ المعدوم، ويَصِلُ الرَّحِم، ويحمل الكَلّ، ويُقْرى الضيف، ويُعِين على نوائب الحق. فقبلت قريش جوار ابن الدُّغُنَّة لأنه كان عظيماً في قومه. ومكث أبوبكر يعبد ربه في داره، ثم ابتنى له بها مسجداً كان يصلى فيه ويقرأ فيه القرآن فيتطلع إليه أبناء قريش ونساؤهم يعجبون منه، فأفزع ذلك كفار قريش، وطلبوا من ابن الدُّغُنَّة أن يتنازل عن حمايته إن لم يرجع عما هو فيه، فطلب ابن الدُّغُنَّة من أبي بكر أن لا يعلن عبادته، فقال له الصديق رضي الله عنه: إني أرُدُّ عليك جِوارَك وأرضى بجوار الله تعالى. واستمر رضي الله عنه على إعلان عبادته، متحملاً ما يلحقه من أذى كفار قريش صابراً، محتسباً أجره على الله تعالى، والله مع الصابرين.

نقض الصحيفة

ولما اشتد الحصار على بني عبد مَناف تأثر لذلك جماعة من أعاظم قريش، فقاموا بنصرتهم وتوجهوا إلى الكعبة ونقضوا تلك الصحيفة، أي أزالوها ومزقوها بعد أن رأوها مُتَأكّلة كما أخبرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم. وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بأن الأرَضَة قد أكلتها ولم يبق منها إلا اسم الله تعالى.

فتمكنوا بعد ذلك من مُبارَحَة الشِّعْب ، ومكث النبيُّ صلى الله عليه وسلم يدعو إلى دين الله، والمسلمون كل يوم في ازدياد من قريش ومن غيرهم، ولا يتمكن أعداؤهم من الاعتداء عليهم، حتى كانت السنة العاشرة من النبوة توفي فيها عَمُّهُ أبو طالب الذي كان عَضُدَه ونصيره، فعاد كفار قريش إلى الأذى، حتى هاجر النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وطلب من أشراف هذه الجهة تعضيده بعد أن دعاهم إلى دين الله تعالى، فلم يقبلوا ولم يسلموا بل أغْرَوْا سُفَهاءَهم يَسُبُّونه ، فعاد إلى مكة وطلب من المُطْعِمِ بن عَدِيّ أن ينصره فأجابه لذلك، وذهب صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة في جوار المُطْعِم، فطاف وصلى ثم انصرف إلى منزله يحفظه الله تعالى من أذى الأعداء.